علم الجغرافية الاجتماعية

والاتجاهات الحديثة في الجغرافية

١ ـ الاتجاهات الحديثة

كانت الجغرافية في نظر القدماء تشمل كل العلوم التي تتناول الارض وما عليها من الاحياء، يقابلها في عرفهم الفلك للاجرام الفلكية والرياضة للارقام والفلسفة للعقل. ولكن فروع العلم التي كانت تنطوي عليها الجغرافية اخذت تنفصل عنها حتى جعل رجال الاختصاص يوجهون في مباحثهم الخاصة عناية خاصة، فنشأت علوم الطبيعة والكيمياء والجيولوجية والجغرافية الطبيعية وغيرها. وإذاً فيصح ان نقول ان الجغرافية «أم العلوم».

واشتد الاتجاه إلى التخصص في القرن التاسع عشر، فظن بعضهم انه لم يبق للجغرافية الا الاهتمام بمواقع البلدان وتجارتها. والواقع ان معظم ما كان يدرس في فروع الجغرافية في النصف الاخير من القرن التاسع عشر لم يخرج عن تعيين المواقع وذكر حاصلات البلدان. ومعظم الذين تعلموا الجغرافية في ذلك العهد، أو على تلك الطريقة، لا يعتبرون الجغرافية في نظر العلم الحديث، وقد يبدو لهم ان ينتقصوا من مكانتها.

ولا ريب في ان علم الجغرافية خسر خسارة كبيرة لما انفصل عنه علماء من الطبقة الاولى تلبية لباعث الاختصاص فصاروا يحسبون في عداد الجيولوجيين والانثربولوجيين والاقليميين (Climatologists) وفقدت من مكانتها بانفصال هؤلاء عنها حتى كادت الجامعات الاميركية لا تعنى بتدريس الجغرافية على انها علم مستقل، او بتخصيص اساتذتها بين اساتذة العلوم الاخرى.

ولكن ما لبثت هذه الغيمة ان انقشعت وتحولت دوائر العلم إلى الاعتراف بفائدة الجغرافية كعلم مستقل، في المانيا اولاً ثم في فرنسا ثم في انكلترا والولايات المتحدة الاميركية. وهي الآن تدرس في كل الجامعات ولاساتذتها مقام لا يفوقه مقام الاساتذة في العلوم الاخرى. وقد فازت الجغرافية بهذه المكانة، لان كبار المربين اعترفوا بانها تتناول ميداناً من المعرفة جديراً بكل عناية ولكنها تحولت عما كانت عليه. فالجغرافية الآن لا تقتصر على تعيين مواقع البلدان وذكر حاصلاتها. بل اتجهت الى ثلاث نواح هي: الجغرافية الانسانية والجغرافية الاقتصادية والجغرافية المحلية والتاريخية

اما توزيع النباتات والحيوانات الجغرافي فصُرف النظر عنه لان علماء الاحياء يرونه من اختصاصهم، ولان علماء الجغرافية يريدون ان يقصروا مباحثهم على اثر البيئة في حياة الناس وميدان البحث الجغرافي ـ أي اثر البيئة في طبيعة الناس وتوزعهم على سطح الارض وانتظامهم

وصفاتهم — يجعلها في مكان بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية . لذلك تراها في المدارس والجامعات الفرنسية وبعض جامعات اميركا — مشيغن وكليفورنية — في عداد العلوم الاجتماعية . اما في المانيا وبعض جامعات اميركا — برنستن وكورنل — فتحسب في عداد العلوم الطبيعية . واما في جامعة شيكاغو فقد ذكرت في عداد العلوم الطبيعية والاجتماعية على السواء

ومما يبعث على الدهشة انك لا تكاد تقع على ذكر الجغرافية في دائرة معارف العلوم الاجتماعية التي تنشر الآن في بضعة مجلدات . ولعل تأخر علماء الاجتماع عن اقامة الوزن الصحيح للجغرافية بين العلوم الاجتماعية ناشئ عن ان الجغرافية الاجتماعية نفسها لم تبلغ بعد درجة وافية من النمو

ولما كانت الجغرافية الاجتماعية تعتمد على التاريخ والاجتماع والاقتصاد في جمع الحقائق اللازمة لها ، فلا يستغرب تأخر نموها . على ان المراقبين لنموها يرون فيها ، إذا بلغت اشدها ، علماً ذا فائدة اجتماعية كبيرة . وما يلي من هذه المقالة بيان موجز لاغراضها وحدودها

الجغرافية الاجتماعية : مبرراتها واسبابها

الجغرافية الاجتماعية تتناول اثر البيئة في جماعات كبيرة من الناس دون الافراد والجماعات القليلة كالاسر . وتعنى بوجه خاص بالتحول الذي يصيب المثل الاجتماعية في بلدان مختلفة وما اثر البيئة في هذا التحول . واذا فتنتقل مراكز الحضارة وقيام الامم والجماعات وانحطاطها من المباحث التي تسترعي عناية الجغرافيين الاجتماعيين كل الاسترعاء . وإذا قصر الجغرافي الاجتماعي بحثه على بلاد واحدة تناول بحثه اثر البيئة في ما يجده بين مناطق البلاد من الاختلاف في كفاءة التعليم ، والصحة الاجتماعية ، والاجرام ، والاثر في سياسة البلاد ، والحضارة بوجه عام . ومن اهم ابواب هذا البحث كله ، الموازنة بين ما تنتجه المناطق المختلفة من الزعماء

فالجغرافية الاجتماعية تضم نواحي من مختلف فروع الجغرافية العامة . فهي تأخذ من الجغرافية الاقتصادية اثر الثروة ومصادرها في الحياة الاجتماعية ومثلها ولكنها لا تتناول الا تماماً وجوه الجغرافية الاقتصادية بالمعنى المألوف . وتتناول من الجغرافية المحلية الموازنة بين المناطق المختلفة في بلاد ما ، في شكل سطح الارض ، وحالة التربة والاقاليم ، ولكنها تعنى بوجه خاص بناحية يهملها الجغرافي المحلي Regional Geographer هي ناحية عدد الزعماء الذين تنجبهم مقاطعة ما ، وعدد السكان الذين يلكرن بيرتاً ، وانتشار التعليم والامية ونسبة السكان في المدن إلى السكان في الريف واثر ذلك في المثل الاجتماعية ومحاولة ربط نسبة الامية والمواليد والاجرام بالفروق الجغرافية بين المناطق

اما في الجغرافية التاريخية فالجغرافي الاجتماعي لا يوجه عناية كبيرة إلى العلاقة بين الجو وشكل سطح الارض أو بين حالة التربة ونتائج المعارك التاريخية وما عقد على اثرها من معاهدات

الانسان . وما هو يعنى عناية خاصة بالبواعث الجغرافية التي كانت ذات أثر في نهوض الامم وانحطاطها وفوز السلالات أو تمحصها وتلاشيها ، وتأثير المثل الاجتماعية الذي يصحب هجرة السلالات من بلاد إلى بلاد ، وانتشار اللغات والعقائد السياسية ، وطرق الانتفاع بمصادر الثروة الطبيعية .

وليست الجغرافية السياسية الا ناحية من الجغرافية الاجتماعية ولكن الجغرافي الاجتماعي يترك للمختص بالجغرافية السياسية درس الحدود بين البلدان ومواقع العواصم وغير ذلك في البيئة المتقدمة المادة ميدان الجغرافية الاجتماعية . اما اغراضها الاساسية فهي الانتفاع بما يعرف من البيئة وأثرها لفهم طبائع الشعوب وعاداتها واعمالها

ولذلك ثلاثة اساليب : الاول ان نتناول شعبين من اصل واحد ونشأة واحدة ولكن احدهما هجر بلاده الاصلية الى بلاد اخرى ثم نوازن بين طبائعهما وعاداتهما ومثلهما ، ونحاول تعليل ذلك بأثر البيئة الجديدة في الشعب المهاجر . والثاني ان نتخذ بيئتين متماثلتين في اكثر نواحيها ولكنهما مختلفتان في بعض النواحي ثم نحاول ان نكشف أثر هذا الاختلاف في اجتماع الشعبين الذين يقطنونهما . والثالث ان نتناول اوضاعاً اجتماعية معينة مثل مقام المرأة او احوال الصحة الاجتماعية وندرسها في بيئات مختلفة محاولين ان نربطها بصفة خاصة من صفات البيئة اذا كان ذلك ممكناً . فالجغرافي الاجتماعي مثلاً يحاول ان يتبين هل إنجاب الزعماء العظام مرتبط اي ارتباط بنوع خاص من الاقليم كالاقليم البارد الشديد التقلب . اما وقد بدا اتساع ميدان البحث وتعقيده فلا عجب ان عجز الجغرافية الاجتماعية لا تزال تحبو على طريق النماء . ومع ذلك تمكن اعلام الباحثين فيها — مثل الزورت هنتنغتن [1] والاستاذ سمپلن قشر استاذ الجغرافية في جامعة انديانا وصاحب هذا المقال — من وضع طائفة من النظريات يصح ان تتخذ اساساً للبحث

نظريات الجغرافية الاجتماعية

١ — ترتقي الحضارة ارتقاء سريعاً حيث تكون احوال الاقليم مؤاتية . فاذا تقلت بزور الحضارة الى اقليم غير مؤات ، انحطت الا اذا جددت بهجرة أقوام من بلدان ذات اقليم مؤات . فاذا شاءت الشعوب القاطنة في بلد مؤاتي الاقليم ، ان تنشر الحضارة وتعززها في بلاد غير مؤاتية الاقليم ، وجب عليهم الا يكتفوا بارسال الزعماء والاغنياء لدى افتتاح البلاد بل يجب امداد البلاد بجماعات تجدد حياة الحضارة فيها جيلاً بعد جيل

٢ — تحول التربة الخصبة أو الاحوال المؤاتية لسهولة العيش دون تعزيز الديمقراطية . ففي بلدان من هذا القبيل تتجمع الارض — وغيرها من اشكال الثروة — في ايدي افراد قلائل في حين ان سواد الامة يبقى في حالة فقر وانحطاط . اما في البلدان التي ليست خصبة التربة ، فالميل اقوى إلى التساوي — مساواة نسبية — بين طوائف الامة في الثروة والتعليم والسلطان

(١) صاحب مقالة « علم الشعوب الجديد » راجع مقتطف يناير وفبراير ١٩٣١

٣ — ان الحاصلات الطبيعية التي يسهل استخراجها من بطن الارض كالنفط والفحم والذهب هي من عوامل الدمار الاجتماعي في الجماعة التي تستخرجها ويجب ان تحسب في الموازنة الاجتماعية في ناحية الدين لا في ناحية مصادر الثروة

٤ — ان استعمال مصادر الثروة الطبيعية تتوقف على صفات الشعب وبوجه خاص على نشاطهم الطبيعي وبراعتهم الميكانيكية ، اكثر من توقفها على قرب مصادر الثروة من المناطق الآهلة . فمعظم الفحم والنفط مثلاً يستعمل في اماكن تبعد كثيراً عن مناجم الفحم وآبار النفط . وعلى التحديد من ذلك نجد ان استعمال الفحم والنفط حيث يستنبطان نادر الا اذا كان على مقربة من اماكن استنباطها جماعة متصفة بالنشاط والبراعة الميكانيكية والصناعية

٥ — ان جانباً ضئيلاً جداً من سطح الكرة الارضية ينجب عدداً كبيراً من الزعماء بالنسبة إلى عدد السكان . وذلك لان الاستفادة من مواهب الزعماء يقتضي وجود شعب يقدر المواهب قدرها ويعنى بتشجيع المبتكرين . ومعظم شعوب الارض لا يستطيعون تشجيع النوابغ ماديا وأدبيا لتأخرها الاقتصادي . ولكن ثمة بقاع يتعذر فيها كسب الرزق ولكنها تنجب زعماء اذا كانت أحوال البيئة الاجتماعية مؤاتية لانجابهم وإذا كانت البلدان المجاورة في حاجة إلى هؤلاء الزعماء

٦ — وتندر البلدان التي توجد فيها بيئة اجتماعية كاملة لان عنصراً أو آخر من عناصر البيئة الاجتماعية الصالحة مفقود في هذه البيئة او تلك . واهم هذه العناصر موقع جغرافي حسن يمتاز به بحر بارد مقلب صالح للنشاط الجسدي والعقلي ، ولكنه على جانب من الدفء والرطوبة في بعض فصول السنة حتى يصلح للزراعة . ولابد كذلك من سلالة سليمة من ناحية الوراثة ، واسباب تسهل تبادل الافكار

٧ — في المدن تباين بين طوائف السكان اكثر من التباين الذي نجده بين سكان ريف فسيح ليس في جوار مدن وذلك لان الفرص التي تتاح في المدن لطلاب العمل اكثر تبايناً من الفرص التي تتاح في الريف

٨ — الفروق في المثل الاجتماعية في مدينة ما او في حي من مدينة فروق في الغالب وهي تختلف باختلاف الاقبال على الحي ، ووسائل المواصلات التي تربطه بالاحياء الاخرى ، وصفات زعمائه وهذه الاختلافات تتم بواسطة انتخاب اجتماعي فيقطن ابناء الامة الواحدة في حي واحد او احياء متجاورة

٩ — يقوى الانتخاب الاجتماعي بارتقاء اسباب المواصلات . ففي المناطق التي تكثر الهجرة اليها نجد متوسط الحماسة والنشاط الذهني والتفاؤل عالياً جداً . كذلك نجد اصحاب المواهب التجارية المالية متجمعين في مراكز التجارة والمال ، واصحاب المواهب العقلية في جوار الجامعات ومراكز التعليم ، والتشاؤم سائد في المناطق التي اخذت تفقد سكانها كما في المناطق الزراعية

١٠ — ليس ثمة منطقة كاملة من حيث هي بيئة اجتماعية ومهما تتوافر فيها العناصر اللازمة لابد لها من سد ما ينقصها بما يرد اليها من غيرها . وكل وسيلة تمكن هذا التبادل تفيد فائدة اجتماعية كبيرة . واذاً فضرب الضرائب على اسباب المواصلات المختلفة ضار من الناحية الاجتماعية